الجامعة العربية في عامها الثامن

يحتفل العرب اليوم بميلاد الجامعة العربية الثامن . وقد كانت الاعياد ولا تزال مناسبات اشبه بتلك المرآة الصغيرة التي توضع قبالة السائق في السيارة لينظر فيها من حين الى آخر فيرى من خلفه ويتحاشى ما قد يدهمه فيما اذا اراد ان يقف بسيارته او يدور بها يميناً او شمالاً .

واود اليوم ان نغتنم هذه الفرصة المناسبة لنلقي نظرة خاطفة في هذه المرآة الخلفية . وأول ما نراه ان هذه الجامعـــة لا تزال وليدة الأمس وان ايام نموها لا تزال امامها على الرغم من ان سنيها الثماني كانت سنين عجافاً لا قطر فيها ولا خصب .

فقد ولدت الجامعة تلبية لأماني وآمـال دغدغت العرب نحواً من قرن كامل على الاقل ولم يستطيعوا تحقيقها بسبب من الكابوس العثماني اولاً والكابوس الانتدابي الذي « بلقن » بلادهم ثانية ، أي جعلها بلقاناً ثانياً متعدد الأقطار مفرق الكلمة تسير الدول الاجنبية

---

(١) ٢١ آذار ١٩٥٣ .

ذات المصلحة سياستها . ولم يكن تصريح وزير الخارجية البريطاني الاول في ٢٩ ايار ١٩٤١ وتصريحه الثاني في ٣١ آذار ١٩٤٣ سوى اشارة الى ان الحواجز الخارجية لم تعد تقوى على صد هذه الآمال لا سيما وقد دفعت الاحوال العالمية آنذاك المصلحة البريطانية في مجرى موازٍ للمصلحة العربية .

واخيراً تجسدت هذه الآمال في ميثاق الجامعة العربية فولدت الجامعة في جلبة من الحماسة والتفاؤل . وعقد العرب على هذه الوليدة آمالهم وأملوا أن تكون هذه الجامعة نقطة انطلاقهم في النصف الثاني من القرن العشرين والخطوة الاولى في سبيل التعاون فالاتحاد فالوحدة والمساهمة الفعالة في اسرة الدول الحية والسير إلى الأمام في موكب الحضارة .

هذا ما رجاه العرب وصبا اليه الخاصة والعامة . غير ان الميثاق في ايدي المسيطرين من دعاة البلقنة العربية اصبح وثاقاً يكبل مساعي العرب نحو التعاون ويخنق امانيهم في سبيل الاتحاد ويزهق آمالهم في سبيل الوحدة مع ان الوحدة كانت ولا تزال هدفهم منذ بدء نهضتهم الحديثة .

وأمل العرب ان تصبح هذه الجامعة ، على علاتها ، أداة صالحة لجمع شتاتهم ولحل قضاياهم وتحسين احوالهم ودرء الخطر عن بلادهم فاستحالت في ايدي دعاة البلقنة مقهى لتبادل النكات ، ومطعماً للتنعم بالوان الطعام ، ضاعت فلسطين تحت مناسفه وتبخرت آمالهم بين أكوابه .

عقد العرب آمالهم على الجامعة العربية لأنهم رأوا فيها الى حد تجسيداً لفكرة طالما حلموا بها. فتحولت في ايدي دعاة البلقنة الى ناووس حنطت فيه تلك الفكرة. أراد العرب لهذه الفكرة تجسيداً فلاقت في الجامعة تحنيطاً ، أرادوها تنبض حيوية فلاقت في براد الجامعة تجميداً . وكان ان تدهورت العلاقات بين الأشقاء والشقيقات وقامت بينهم القطيعة في جميع مظاهرها . ومرت على البلاد العربية فترة من الزمن توقف فيها المصريون عن ارتياد مصائف لبنان ، وصدت أبواب المدارس العراقية في وجه المدرسين المصريين ، وارتفع سور القطيعة الصيني بين سورية ولبنان ، وقامت المعاقل والثغور بين الحدود العربية .

وكانت النتيجة ان فشل العرب منذ قيام الجامعة في جميع جهودهم السياسية تجاه العالم المحيط بهم ، وفي معظم جهودهم المحلية لرفع مستوى الشعب ، فارتبط اسم الجامعة بالسخرية والفشل ، فشمت بنا الأعداء — أعداء العرب وأعداء الفكرة العربية من العرب انفسهم . وعندي ان فشل الجامعة هذا في الحقلين الخارجي والداخلي هو من اكبر الاسباب في فشل الفكرة القومية وطغيان الفكر الاخرى ، إن اسلامية او شعوبية او اقليمية ضيقة .

والسبب الاول والآخر في فشل الجامعة يعود الى ثلاثة امور : اولها ميثاق الجامعة الذي يؤكد على الاقليمية ويؤدي حتماً الى البلقنة . وثانيها سيطرة الجيل القديم على مقدراتها ، ولن تكون اية مؤسسة خيراً من المسيطرين عليها مهما تكن فكرتها حسنة الغايات

سليمة الاسس . فمقدرات الجامعة كانت حتى الامس في ايدي جيل لم يتجاوز تفكيره السياسي الفترة الواقعة بين العهد العثماني والحرب العالمية الاولى ، فوقفت الجامعة لذلك عند الحدود السياسية ولم تتعداها الى الشؤون الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بجد . وثالثها ان الجامعة حاولت ان تجمع دولاً ودويلات لم تتبلور بعد مقوماتها ، وفي الوقت نفسه استهدفت الامعان في بلقنتها وفي التأكيد على عوامل التفريق كالسيادة الوطنية وشد الجامعة الى السياسة المصرية حيناً والى المحور المصري السعودي او المصري السوري حيناً آخر . وجعلها ميداناً للتنافس الاسروي ونقطة ارتكاز لمرجحة التوازن العربي . ولن تكون اية منظمة من هذا النوع افضل من اعضائها ولا اقوى من اضعف عضو فيها . فقوتها كقوة السلسلة تقاس باضعف حلقاتها .

هذا ما نراه عندما ننظر في تلك المرآة الخلفية . غير ان السائق الذي يرقب ما خلفه فحسب ولا ينظر الى الامام فمصيره التدهور لا محالة . فعلينا اذن ان نتطلع الى الامام والى ما يجب ان يكون مستقبل الجامعة .

ان فشل الجامعة في تحقيق ما عقده عليها العرب من آمال ، وفشل العرب في بعض نواحي جهادهم القومي لا يعني فشل فكرة الجامعة نفسها ولا فشل العروبة التي نؤمن بها . ان فكرة الجامعة العربية لم تفلس عندما افلس القائمون عليها ، كما ان العروبة لم تفلس عندما مني العرب بالفشل في بعض نواحي جهادهم القومي

لأنهم صدفوا عن روحها وابتعدوا عن جوهرها . ولم يفلس الا حرباآت العقائد الذين يلبسون لكل حالة لبوسها — يتعلقون باهداب العروبة يوم عزها ويتخلون عنها في يوم بؤسها ويغمدون خناجر اللؤم في ظهرها في يوم عثرتها ويشتمون بها في يوم محنتها .

ان مستقبل العرب مرهون بنجاح فكرة الجامعة العربية ، ولن تنجح الجامعة الا اذا نظر اليها العرب كخطوة اولى في سبيل التعاون فالاتحاد والوحدة . وهذه لا تمثل عملية واحدة بل سلسلة من العمليات مستمرة . ومن دواعي الغبطة والسرور اننا نحتفل بهذا اليوم ودلائل التبدل في نظرة العرب الى الجامعة من براد لتجميد الاوضاع الراهنة الى ميدان للجهود العملية اخذت تبدو واضحة . وانا لنأمل ان يكون الغاء سمات جوازات السفر بين لبنان والعراق خطوة اولى تعقبها خطوات عملية لتحقيق المصلحة العربية . ولا يسعني ان امر على هذا الحدث التاريخي دون ان اهلل له واشكر الرئيس اللبناني الذي بادر الى توجيه السياسة العربية الى الايجابية واعاد الى لبنان طابعه الخاص وهو السير في طليعة البلدان العربية في حمل لواء النهضة الحديثة على جادة التعاون والاتحاد الى الوحدة منذ اوائل القرن التاسع عشر . وعندي ان الغاء هذه السمات يوازي في اهميته جميع ما قامت به الجامعة العربية طوال سنيها الثمان .

وكما ان هذه المناسبات تتيح لنا ان نلقي نظرة إلى الوراء ثم نستأنف السير إلى الامام كذلك تهيء لنا فرصة لتجديد ولائنا

للفكرة التي تمثلها هـذه المناسبة او تلك . فيجدر بنـا إذا ان نجدد اليوم ايماننـــا بالجامعة العربية كخطوة اولى في طريق التعاون والاتحاد والوحـدة وان نجدد إيماننا بالعروبة وولاءنا لها كاسلوب من اساليب التطور والنمو وطريق من طرق الحياة تسير دومـاً نحو الرشد والرشاد وعقيدة في العلاقات الانسانية متأصلة في قيمة الفرد وكرامته تستوحي فكرة الحرية المتطورة .

وامام العرب اليوم قضايا ملحة اذا لم تعـــالج بحكمة وحزم وصراحة جلبت عليهم الدمار والفناء . وأمامهم كذلك فرصـــة فريدة يتوقف على انتهازها المستقبل العربي . وأهم ما في هـــذه الفرصة انها تمكن العرب من ان يأخذوا بناصية المبادرة بعد ان أفلتت من ايديهم سنين طوالاً . ومن المنتظر ان تجتمع الجامعـة العربية قريباً للبت في هذه القضايا الملحة . فهل تقدم عـلى معالجتها بروح ايجابية بناءة تستوحيها من مصلحـــة العرب وعبر الماضي ومنطق الحوادث أم تكتفي بالخطب والمآدب وتبادل العواطف فيجرفها التاريخ ؟

إن العرب ينتظرون من الجامعة ان تواجه العالم بخطط مدروسة بناءة ومطالب عادلة معقولة يستطيعون ان يقروهـــا وان يقفوا صفاً واحداً في عرضها والدفاع عنها . وان العرب ينتظرون من الجامعة العربية الصراحة التامة ولو كانت مؤلمة . وما النكبات التي ألمت بهم في الماضي القريب إلا نتيجة للتمويه والمواربة . وقد ابتلي العرب بساسة هم أشبه بجـــانوس ذلك الرجل الاسطوري ذي

الوجهين . وهم لا يجرؤن على مجابهة الشعب بالحقائق بل يخدرونه بانصافها ويخفون عنه الواقع ويعللونه بالمحال .

نقف اليوم على مفترق الطريق إن في الشؤون الداخلية أو في الشؤون الخارجية . وما الانتفاضات التي هزت العالم العربي منذ النكبة الفلسطينية إلا دليل على أن غريزة الشعب ، على الرغم مما ينوء تحته من جهل وفقر ومرض وحيرة وانغلاب ، اخذت تدله على ان مستقبله مرهون بالصراحة والايجابية والعمل ، وهو لا يرضى ولن يرضى بغيرها . فحذار فالعبر امامنا عديدة وحديثة ومخيفة .

ولدت الجامعة العربية تلبية لأماني العرب . وكانت ولادتها محفوفة بالرجاء والامل كما كانت محفوفة بالتراجع والفشل . واليوم بعد انقضاء ثماني سنوات على هذه التجربة النبيلة اقول ان نجاح العرب في حل القضايا الملحة التي تعترض سبيلهم يتوقف إلى حد بعيد على نجاح هذه التجربة . يجب على الجامعة العربية ان تنجح كما يجب على كل عربي يريد سلامة بلاده ورفاه اخوانه وسعادة بنيه ان يعمل على نجاحها وذلك بالسعي المتواصل لاقامة الحكم الشعبي الصالح في البلاد ودفع الحكومات العربية الى العمل الجدي السليم في حل القضايا العربية . ان فكرة الجامعة العربية فكرة صحيحة حية تقوى على النمو . وستكون في ايدي المؤمنين بها أداة صالحة لاقامة بنيان عربي قبلته الوحدة لا التفريق ، والتقدم لا الجمود .

منذ سبع سنوات دعوت الى ولايات متحدة عربية . واليوم

إذ نحتفل بميلاد الجامعة العربية الثامن أقول ان هذه الجامعة ليست غاية ما يجب ان يبلغه العرب في تطور علاقاتهم بعضهم ببعض ، بل هي الخطوة الاولى في سبيل الولايات المتحدة العربيـة . وانا لا أزال أحبذ هذه الجامعة لا لما هي بل لما ترمز اليه. اول عمل إيجابي يقوم به العرب انفسهم في سبيل وحدتهم . وكل من سار عـــلى الدرب وصل .